**المستوى : ماستار الحديث وعلومه**

**المرحلة :السّداسي الأول**

**مقياس**

**دراسات بيانية وبلاغية في الحديث النبوي الشريف**

ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ

 الحمد لله ربّ العالمين وليّ الصالحين والهادي إلى صراطه المستقيم ،وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدا رسول الله النبيّ الأميّ ،مَن أوتِي البيان وأُلين له الكلام ،ولا عجب وهو من قال عن نفسه : "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش " ،فاللهم صلّ وسلّم عليه وعلى آله الطاهرين الطّيبين وصحابته الغرّ والميامين ،وبعد :

 فأَولى ما ينبغي أن يُعنى به بعد كتاب الله سنّة النبيّ الأمين ،ندرسها من جهة الرواية ،وتلك مزية الأمة يتوارثها أهل الحديث جيلا بعد جيل ،ويعطونه من مهجهم ما تقرّ به نفوسهم ونفوس المؤمنين معهم ،ثمّ تعقبها درجة من قام على درايته ،يدرسه ويتفقه فيه ويبحث في دقائقه ،ولا يكاد أهل هذا الفن يغادرون صغيرة ولا كبيرة من صناعة الحديث ودرايته إلا أحصوها ودوّنوها ،وقد أوتوا من عمق النظر ،ما أدهش الناظرين من أهل الملل ،وعلموا أنها مزية أمة محمد لا يشركهم فيها أحد ،ولا شكّ أن ما جُمع من الأحاديث كان بلسان عربيّ مبين ،نطق به من أَقرّ له بالفصاحة هؤلاء الّذين بعث فيهم من العرب العرباء ،على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ، ولا جرم أنّ حديثه يُروى بالواو كما أثبته ابن أبي جمرة عن علمائنا في **بهجته** ،وكان أهل الحديث أحرص الناس على ذلك ،حتى لا يضيع قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ،فكما حافظوا على لفظه وحرفه ،حافظوا على معناه وبيانه ،ومن عانى قراءة حديثه ـ صلّى الله عليه وسلم ـ ذاق حلاوة البيان في أسمى صُورها ،وعلم أن مثل ذلك الكلام لا يكون إلا من نبيّ ،كما أنّ اللغة لا يحيط بها إلا نبيّ ،وهل النبيّ إلا سيّد الأنام محمّد ،من ربّاه الله على عيّنه ونشّأه في بني سعد وجعل نسبه في قبيلة قريش ،وبنو سعد وقريش كلتاهما من أفصح قبائل العرب ،لا يماري في هذا أحد ، فهو ابن بجدتها ،فقد جُمعت له الفصاحة والبلاغة من جميع أقطارها.

 فدرسنا في هذه المحاضرات سيدور حول تلك البلاغة التي حُلّيت بها أحاديثه وجمّلت ،وكانت في تحقيق المعاني والمقاصد في الذروة السامقة ،سواء ما كان منها في الأحكام الفقهية ، أو الحِكم الوعظية ،وما كان منها مضرب الأمثال ،وما استحضره من قصص الأنبياء وأخبار الماضين ،وما قررّه من العقائد الإيمانية ،وما إلى ذلك من المواضيع والأغراض التي تخلّلت بمعانيها المتباينة كلامه ـ صلّى الله عليه وسلم ـ وهو يخطب في صحابته ويحدّثهم في حال الحرب والسلم وحال الأمن والخوف ،وهو يخاطب القريب والبعيد والعدو والصديق والصغير والكبير والأحرار والعبيد ،والزوجات حين رضاه وسخطه ،والأصحاب وهو يلقاهم في صلاته وحين يصحبهم أثناء راحته يسامرهم ويمازحهم ،يعطي كل واحد منهم حقّه من الصحبة ،فيسمعهم تارة ـ إن أساءوا ـ من كلامه زجرا ، وذلك منه رعيا لحدود الله نهيا وأمرا ،وتارة ـ إن أحسنوا ـ يلقاهم بكلام ليِّن ويمنحهم من وجهه رضا وبشرا ،ويأتي في كل ذلك من الألفاظ والتراكيب ،ويستحضر من الأساليب والعبارات ما يناسب المقام ،ويناسب كلّ حال ،فمقام الحرب غير مقام الحرب وحال الحزن غير حال الفرح ،فتارة يخاطب العقل وتارة القلب ،فلا يخطئه أبدا التأثير في المخاطَبين ،ولا يمجّ كلامه المستمعون ، بل تُقبل عليه القلوب وتشرئب إليه الأعناق ،ويلقى الناسُ كلامه بالبشر ،ويستوي عنده في ذلك خطاب الفرد والجماعة ،وخطاب من عاشر من صحبه أو قومه ،ومن جاء وافدا عليه من غير قومه أو صحبه ،فما أُرتِج عليه قط ،ولا اعتراه حَصَر ،ولا تلعثم أو تأتأ ،بل يجري كلامه بالسهل الرسْل كما يجري لسانُه بالرّصين الجزْل ، فهما عنده سيان ،وقد يخاطب الوافدين بمثل لهجتهم بل يكون في ذلك أفصح منهم في لغتهم ،وتلك آية صدق نبوّته ،وتلك آيات كمال بلاغته ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ،ولا عجب فهو من أوتي جوامع الكلم ،وأفصح من نطق بالضاد .

 للّه درّ الجاحظ حين حَمل قلمَه ،وأملى عليه ما يجب أن يوصف به بيان النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقال :" هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ،ونُزِّه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط ،والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ،ورغب عن الهجين السوقيّ ؛فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ،ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ،وشُدَّ بالتأييد ،يُسِّر بالتوفيق ،وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ،وغشّاه بالقبول ،وجَمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام .وهو مع استغنائه عن إعادته ،وقلة الحاجة الى معاودته لم تسقط له كلمة ،ولا زلت له قدم ،ولا بارت له حجّة ،ولم يقم له خصم ،ولا أفحمه خطيب ،بل يبذُّ الخُطب الطّوال بالكلام القصير ،ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ،ولا يحتج إلا بالصدق ،ولا يطلب الفلج إلا بالحق ،ولا يستعين بالخلابة ،ولا يستعمل المؤاربة ، ولا يَهمز ولا يَلمز ،ولا يبطئ ولا يعجل ،ولا يسهب ولا يحصر؛ ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعاً ولا أصدق لفظاً ،ولا أعدل وزناً ،ولا أجمل مذهباً ،ولا أكرم مطلباً ،ولا أحسن موقعاً ،ولا أسهل مخرجاً ،ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ـ صلّى الله عليه وسلم ـ " . [ البيان والتبيين ]

 وكذلك جادت قريحة مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ فعبّر عن بلاغة حديثه ـ صلّى الله عليه وسلم ـ بأحسن عبارة ، وأفرغ فيها من المعاني ما يدلّ الدلالة الواضحة أنه أدرك بعمق تلك البلاغة النبوية ،فقال :" ألفاظ النبوة